

تاريخ القبول: 2023/01/17

تاريخ الإرسال: 2022/01/30

تاريخ النشر: 2023/02/16

## التفاعل الأجناسي في رواية " الشبح الكليدوني " لـ " محمد مفلح. Genre Interaction in the Novel "The Caledonian Ghost" of "Mohamed Meflah"

د. مولود بوزيد<sup>1</sup>،جامعة مولود معمري، تيزي وزو (الجزائر)، [bouzidmouloud@ummt0.dz](mailto:bouzidmouloud@ummt0.dz)<sup>1</sup>

مخبر التمثلات الفكرية والثقافية

### الملخص:

تناولنا في هذه المقالة إشكالية التفاعل الأجناسي في رواية "الشبح الكليدوني" لكتبتها "محمد مفلح"؛ حيث تطرقنا في البداية، إلى مفهوم الجنس لغة واصطلاحاً، لنخرج فيما بعد إلى استجلاء مظاهر تعالق الرواية مع الموروث الشعبي (الشعر)، والتاريخ من خلال استحضار لتاريخ "المنفيين" الجزائريين المهمشين والذين نفاهم الاستعمار الفرنسي إلى جزيرة كاليدونيا، لنختم بتعالق الرواية مع أدب الرسائل.

وبينت الدراسة أنّ الروائي أراد من خلال عمله الإبداعي أن يرد الاعتبار للجزائريين المهمشين في كاليدونيا من جهة، وإلى ضرورة الاعتزاز بالماضي والبحث في تاريخ الجزائر المجيد وإحياء أمجاده وخاصة المنفيين الذين جاء ذكرهم في التاريخ شحيحاً من جهة أخرى.

**الكلمات المفتاحية:** الجنس؛ التاريخ؛ الكليدوني؛ التعالق؛ السرد.

### Abstract:

In this article, we have dealt with the problem of genre interaction in the novel "The Caledonian Ghost" written by

"Mohamed Meflah". First, we approached the notion of genre, then we clarified the interrelationships of the novel with folklore (poetry), and history by invoking the history of marginalized Algerian "exiles" who were exiled by the French colonialism on the island of Caledonia, to conclude on the relationship of the novel to the literature of letters.

The study showed that the novelist wanted, through his creative work, to rehabilitate the marginalized Algerians in Caledonia, on the one hand, and on the other hand, the need to cherish the past and to seek the glorious history of the Algeria and revive its glories, especially the exiles who were rarely mentioned in the history.

**Keywords:** genre; history; Caledonian; interrelationship; narration.

المؤلف المرسل: مولود بوزيد، الإيميل: [mimou.bzd@outlook.fr](mailto:mimou.bzd@outlook.fr)

## 1. مقدمة:

حققت الرواية العربية حضوراً متميزاً في الساحة الأدبية مما جعلها تفرض نفسها على مختلف الأجناس الأدبية الأخرى، فإذا كان الشعر ديوان الأمم قديماً فإن الرواية هي ديوان الأمم في القرن العشرين.

فتح هذا الحضور المتميز للأعمال الروائية الباب على مصراعيه للنظر فيها وتقدّمها قراءة، وتحليلاً تنظيراً وتطبيقاً فظهرت دراسات عديدة تبحث في النصّ الروائي، حيث لم تعد القراءة النقدية تقتصر على بيان ما في الرواية من بنيات شكلية من شخصيات وزمان ومكان، متخذة اللغة وسيلة لبيان ذلك، بل تعدت إلى دراسة ذلك التداخل والتفاعل مع مختلف الأجناس الأدبية الأخرى، وبناءً على ما سبق وقع اختيارنا على رواية "شبح الكاليدوني" لـ "محمد مفلّاح" كونها ذات حبكة

تجمع بين الحاضر والماضي من جهة، وصيحة مدوية يحي بها الأديب العهد الكاليدوني من جهة أخرى، حيث يتداخل هذا النص مع عدة نصوص أخرى؛ كالشعر والأمثال والأساطير وغيرها، كما أنها تشكل نصا سردياً يدفعنا لممارسة فعل القراءة من خلال تتبع مختلف العناصر التي تشكل لنا البناء الروائي.

ولعل الإشكالية التي يمكن أن تتبادر إلينا: ما مفهوم الجنس الأدبي؟ وما هي الأجناس التي وظفها "محمد مفتاح" في روايته؟ وهل حافظ بهذا التوظيف على التقاليد السردية والروائية المتعارف عليها؟

## 2. مفهوم الجنس الأدبي:

### 1.2 الجنس لغة:

جاء في معجم "مقاييس اللغة" أنّ الجنس؛ «الضرب من الشيء» وقال الخليل: طل جنس، وهو من الناس والطير والأشياء جملة...، والجمع أجناس،<sup>1</sup> وجاء في معجم "لسان العرب": الجنس؛ «الضرب من كل شيء، وهو من الناس ومن الطير ومن حدود النحو والعروض والأشياء جملة...<sup>2</sup>» والجنس أعم من النوع ومنه المجانسة والتجنيس.

### 2.2 الجنس الأدبي:

لقد عرّف "لطيف زيتوني" الجنس الأدبي بأنه «اصطلاح عملي يستخدم في تصنيف أشكال الخطاب، وهو يتوسط بين الأدب والآثار الأدبية».<sup>3</sup> ويتضمن مبدأ الأجناس الأدبية معايير مسبقة غايتها ضبط الأثر وتفسيره.

وقد بين "محمد غنيمي هلال" في كتابه "الأدب المقارن"، أنّ النقاد على مرّ العصور وصفوا الأدب بأنه أجناس أدبية، فقال: «لا يزال النقاد في الآداب المختلفة على مر العصور ينظرون إلى الأدب بوصفه أجناساً أدبية، أي قوالب عامة فنية، تختلف فيما بينها... حسب بنيتها الفنية، وما تستلزمه من طابع عام».<sup>4</sup>

### 3. ملخص رواية شبح الكليدوني:

تدور أحداث رواية "شبح الكليدوني" الصادرة عن "دار المنتهى" حول معاناة الجزائريين الذين نفاهم الاستعمار الفرنسي إلى جزيرة كاليدونيا (جزيرة تقع في المحيط الهادي، بالقرب من أستراليا)، الرواية وذاكرة المنفى تنطلق من تتبع السارد ليوميات الشخصية السردية "محمد شعبان" وهو موظف في قطاع الثقافة يعاني من مشاكل اجتماعية كثيرة، إلى جانب الصراعات النفسية - الفكرية - التاريخية ومحاصرة الماضي له. فكل يوم وعبر كل فكرة أو خاطرة نجده محاصراً بصور والد جده الشيخ "محمد الكليدوني"، خاصة في ظل حرص والده على السعي للوصول إلى قبر الجد الذي نفته فرنسا في ستينات القرن التاسع عشر، حيث كان الاستعماري ينفى المقاومين والمعارضين لسياساته وممارساته القمعية والوحشية، وتتساءل الرواية عن أسباب إهمال المؤرخين للمنفين في كاليدونيا. <sup>5</sup>كون أن ينسى الروائي نقل مقاطع من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتأثيرات الربيع العربي.

ويغوص بنا "محمد مفلح" في عمق الجزائر ليكشف لنا عن مافيا العقار وأزمة السكن والبطالة وسطوة المال على السياسة، وبعض الظواهر الاجتماعية السلبية مثل؛ سرقة السيارات وأزمة المقابر والاستعمال السيئ لتكنولوجيا الاتصال، كما يذكرنا بجزائر العشرية السوداء وسنوات الدّم والنار والتطرف والاعتقال (...). - يسعى "محمد شعبان" - أي حفيد المنفيين في كاليدونيا - للوصول إلى قبر الجد الشيخ "محمد الكليدوني" الهارب من المنفى عبر سفينة اتجهت للحجاز، ثم عاد إلى الوطن مع موكب حجاج المغرب، وقد استطاع الحفيد شعبان بعد محاولات صعبة ورحلة في الجبال من الوصول للقبر والتواصل مع بعض الذين تذكروا قصة المنفيين وحرصوا على سلامة ضريح الجد.

### 4. تداخل الأجناس في رواية "الشبح الكليدوني" لمحمد مفلح:

#### 1.4 تعالق الرواية مع الموروث الشعبي (الشعر):

في هذا العصر الذي تداخلت فيه الأجناس الأدبية واختلطت حدودها «أصبحت الرواية فناً غير خالص تماماً، فهي لا تكفي بخصالها الثرية حين تسعى إلى تنمية متنها الحكائي، بل تلامس وهج الشعر، وتقترب بعضاً من شمائله، ولا تأخذ الرواية من الشعر ما يخرج بها عن طبائعها العامة بل ما يعلي من تأثيرها وراثتها، وما يجعل منها نصاً ذا جمال شائك ومكون احتمالي»<sup>6</sup> وبرغم تداخل الأجناس الأدبية في رواية "شبح الكليدوني" على النحو الذي تسعى الدراسة إلى مقارنته، فإن أكثر ما يلفت النظر فيها ذكر مقاطع شعرية في سياق النص الروائي، وهذا يعني تحول لغة الرواية من مستوى لغوي إلى آخر مغاير له؛ لأن الشعر بنية نصية إيقاعية مغايرة لتدفق النثر الشعاري، وتمتاز هذه المقاطع بقصرها المتناهي وبكونها شعراً من صياغة الآخر.

مثل: قول الراوي: وهو يستمع من مسجلة المركبة إلى قصيدة (سلاك

المغبون) للشاعر محمد بلخير:

سلكننا يا خالقي من جار الجار

حبس الرومي لا تخلي مسلم فيه.

ويولي الحبس عندي إلا تفكار

وطن العز نجيه وأذل نخليه.

ثم استمع إلى قصيدة (يا سايلني) ومنها:

راني في (كالفي) مجول \* أنا والشيخ (بن دوينه) مرهونين.

فيوك يا خالقي تعول \* من بر الزوم تفك من البحرين.

فهذه الأبيات قالها الشاعر "محمد بلخير" الذي حكم عليه بالنفي إلى قلعة "كالي" في سنة 1984، فهي قصيدة أنقذت الذاكرة المعطوبة من الموت الفظيع، فقامت بإحيائها وتخليدها.

فالرواية حافلة بالموروث الشعبي البدوي مثلما سبقت الإشارة إليه، إذ نلمس أن الكاتب يلبس شخصيات روايته لباساً عربياً أصيلاً، معبراً في الآن نفسه ويقدر كبير عن الجو العريق الذي تمتاز به حياة العرب من كافة النواحي، ومن ناحية تمسك الناس بتاريخ أجدادهم وتسمية الجيل الصاعد بأسماء السلف الصالح، يظهر هذا التمسك بالموروث ما جاء في النص "بصافي المايدي" وهو أول من أرشده إلى عالم الأغنية البدوية ونصح به باقتناء قرص غنائي للشيخ "عبد القادر بوراس" بعدما صح صوته المميز، ولما سمع "أحمد شعبان" يتحدث عن المنفيين إلى "كاليدونيا الجديدة" و"كورسيكا" و"كيان"، حثه على الاستماع إلى قصيدة "بي ضاق المور"، وكان المفاجأة اكتشف ما كان يرغب فيه:

لو كان بكيث أبطال رفدوهم في بابور \* \* بي ضاق المور .

راهم شق البحور دارقين وخبرهم ينعاد .

راهم مسجونين في جزيرة في وسط بحور \* \* بي ضاق المور .

عليهم الباب والفقل معمد تعمد

عيطة ناس مسلسلين يتمشوا بالكور \* \* بي ضاق المور .

جيش الروم معذبهم من بكري حقاد. <sup>7</sup>

إن التراث البدوي قابع في وجدان الشخصية البطلة، خاصة وأنه ينسجم مع ميولها وأحلامها إلى حد كبير، فالأغنية البدوية المختارة في هذا المقطع السردية تنثير المواجه في نفس "أحمد شعبان"، وهو يتخيل جده المنفي في الجزيرة النائية رفقة آخرين، مقيدون بالسلاسل يعذبون من طرف الاحتلال الغاشم.

ويتضح مما سبق أنّ الثقافة الشعبيّة المتمثلة في الأغاني الشعبيّة والبدويّة تنتقل للقارئ صورة من صور الواقع الاجتماعي، فهي تعتبر مرآة عاكسة لحال المجتمع بآلامه وآماله وأحزانه وأفراحه وثقافته، وذلك عن طريق الكلمات التي تحمل معنى يوافق حقيقة الواقع.

وأما بالنسبة للثقافة الشعبيّة في الحاضر، فقد حاول السارد أن يبرز أثرها في النصّ الروائي، من خلال السهرة التي حضرها " محمد شعبان"، الذي « اشتدت عليه وطأة الدّوار فتناول قرصاً من البراسيطامول عاد مرهقاً ومستاءً من السّهرة التي غنى فيها الشّاب كادير التّسناس، المطرب الذي سطع نجمه فجأة بأغنية:

في قلبي جمرة \* \* أنت كالبقرة \* \* بلا حليب".

ما قلت حقرة \* \* يا وحد الغرة \* \* مالكي حبيب.

تنبأ المغني بمصير بلاده قبل المحلّلين السياسيين، كانت كل أغانيه من الواي واي، هذا النوع الغريب المنتشر».<sup>8</sup>

يوظف " محمد مفلّاح" في روايته "شبح الكليدوني"، مقطعاً من قصيدة " ما

جا جلّول" لسيدي "قدور بن عمار" التي يقول فيها:

ما جا جلّول \* \* \* ما جاش سلطان الأوليا

ما جا جلّول \* \* \* بخبارو عاود عليا.

إلى جانب الخطاب الشعري الشعبي الموظف من قبل الروائي، يوظف أيضاً مقاطع من الأغنية البدوية الجزائرية، وهذا ما ورد على لسان البطل "أمحمد شعبان" حين يقول:

يا ربي سالو على لزرق بلحاج \* \* \* يا ربي سالو على رفيق الحجاج.

يا ربي سالو على لزرق بلحاج \* \* \* على لحرر يغناج فايت لغليزان.

فحضور الخطاب الشعري ليس لغاية الزينة، بقدر ما يحمل وظيفة فنية ودلالية، فضلاً عن وظيفة الكلام على الكلام، ويكون على صلة بالتشكيل الفني للعالم القصصي، فجاء مندمجاً مع السياق الجديد، متفاعلاً مع نفسية الشخصيات التي تجعل من الشعر أداة موحية برغباتها وانفعالاتها، كاشفة عن النفس البشرية وتضاريسها وخفاياها.<sup>9</sup> يقول: وسرح مع قصيدة "سيدي الأخضر بن خلوف":

" الموت تابعتني والأرض الباردة \* \* أبقاوا بالسلامة يا أولاد خلوف. <sup>10</sup>

إنّ المتمعن في رواية "محمد مفلح" يلحظ دونما عناء تفاعلها مع الشعر، لا سيما الشعر الشعبي منه، وزيادة على أنّ الشعر يشد هذه الروايات إلى منبتها العربي الأصل من جهة، فإنّه المورد العذب لخطاباتها الأدبية وما تبوح به نفسيات شخوصها من جهة ثانية، ووجود الشعر في الرواية أمر طبيعي وتحصيل الحاصل الذي تقتضيه الطبيعة المركبة لفن الرواية، بوصف الشعر واحداً من مظاهر التعدد، ونوعاً من الاستجابة التلقائية لمرونة الجنس الروائي.

إلى جانب الخطاب الشعري الشعبي الموظف من قبل الروائي، يوظف أيضاً مقاطع من الأغنية البدوية الجزائرية، وهذا ما ورد على لسان "البطلحين" يقول: ثم وضع سماعة الهانف المحمول على أذنه اليمنى، وراح ينصت إلى أغنية "الحمام":

الحمام اللي ربيته مشى عليّ \* \* ما بقى يسمع صوته في أرسامي".<sup>11</sup>

استقبله غنام ولد اللبة الذي انطلق صوته القوي مقلداً المغنية الشيخة

الريمي.

" مازلنا حيين يا اللي قتلتمو ماتوا" <sup>12</sup>

وسرح مع قصيدة "سيدي الأخضر بن خلوف":

" الموت تابعتني والأرض الباردة \* \* ابقاوا بالسلامة يا أولاد خلوف" <sup>13</sup>

إلى جانب الشعر والقصيدة البدوية تحدث الروائي عن الحكايات العجيبة عن "حديدوان وبقرة اليتامي"، "الذئب الخبيث"، "الغول" و"لونجة" بنت السلطان، حيث تم استحضار هذه الحكاية الشعبية حين قال «بأنه لن يتزوج حتى لو عرضوا عليه الفاتنة لونجة بنت السلطان».<sup>14</sup> وتحدث أيضا عن الأولياء الصالحين "الحاج عبد القادر بن سيدي محي الدين" و"سيدي الأزرق بلحاج"، "سيدي محمد بن عودة مولى القبة المقدودة".

نلاحظ أن السارد حاول إثراء المادة التراثية كمصدر ثقافي، ومبررًا مدى أهميته، ومكانته في المجتمع، من خلال شخصياته الثانوية في الرواية ليكشف لنا عن الرصيد الثقافي، للشخصيات في الخطاب الروائي.

يمكن القول أن السارد أراد تقديم الصورة الثقافية للمجتمع، انطلاقًا من التراث، حيث يحمل في طياته أثرًا ثقافيًا يساعده في الكشف عن الوعي الحضاري والفكري، الذي يمثل المجتمع في الرواية.

نفهم من خلال ما سبق أن الروائي لم يعد مبدعًا بسيطًا، فقد غدا مثقفًا يملك معلومات خارج مجاله الإبداعي، وذلك شيء ضروري بالقياس إلى حجم المسؤولية التي أوكلت له، فعليه معرفة المسرحية وطقوسها والشعر وقوانينه والملحمة وتاريخها والمقامة وتجليات زينتها غير ذلك من الأنواع الأدبية الأخرى.

#### 2.4 تعالق الرواية مع التاريخ:

أضحي التاريخ مادة خامة ينسج بها الروائيون نصوصهم الإبداعية، ورواية "شبح الكليدوني" لـ"محمد مفلح"، رواية تتأسس على التاريخ الذي يتجلى عبر كامل فصولها، فهي استحضار لتاريخ "المنفيين" الجزائريين المهمشين والذين نفهم الاستعمار إلى جزيرة كاليدونيا، ويظهر ذلك من خلال مقطع من الرواية؛ يقول السارد على لسان إحدى شخصياته «حدثه مرارًا عن مأساة الشيخ أحمد المنفي الذي

لم يكتب عنه المؤرخون حرفاً واحداً، ولم يتعرف هو خريج الجامعة على هذا الجُرح المؤلم من تاريخ عائلته المشردة في زمن المقاومة».<sup>15</sup>

تتشكل الرواية من 22 فصلاً، يعود فيها الروائي إلى قصص المجد الثوري الجزائري لكن بتقنيات وتصورات مرتبطة فيما بعضها، فابن "أمحمد شعبان" لا يتوقف عن سفره المفجع الحزين بحثاً عن جثة جده المنفي.

لا يكفي السارد بسرد الوقائع اليومية للمنفي وإنما يقترب من ممارسات المستعمر وهمجيته في البطش والتعذيب وقنبلة القرية، وعرض جثث الشهداء، فتقف الرواية على أعمال شنيعة قامت بها فرنسا الكولونيالية التي عاثت في أرض الجزائر فساداً خاصة خلال النصف الثاني من القرن 19 على غرار كل ما فعله "بيليسييه" (Pelissier)، كافينياك (Cavaignac)، سانت آرنو (Saint-Arnaud) وغيرهم من السفاحين الذين اعتمدوا سياسة الأرض المحروقة، خاصة "محرقة الفراش" التي اقترفها الكونوليل "بيليسييه" في منطقة "الظهرة" بأمر من "الماريشال توماس روبرير بيجو" في الجزائر في قبيلة "أولاد أرياح" في "الظهرة" بتاريخ 19 جوان 1845، إلى جانب "كافينياك" الذي أحرق قبيلة "سبيح" سنة 1844، و"سانت آرنو" السفاح الذي ارتكب محرقة "عين أمران" بعد أيام من جريمة "الظهرة"؟ وما قام به "بيليسييه" هو تنفيذ لأوامر رسالة السفاح "بيجو" المؤرخة في 11 جوان والتي حث فيها الكولونيل "بيليسييه" على قتل سكان "الظهرة" فقال له: «إذا انسحب هؤلاء الأوغاد إلى مغاراتهم فافعلو بهم مثلما فعل "كافينياك" من قبل: اخنقوهم بالدخان الكثيف مثل الثعالب».<sup>16</sup>

تندرج محرقة "مغارة الظهرة" ضمن السجل الدُموي للمستعمر الفرنسي، بعد المحرقة التي اقترفها الكولونيل السفاح "كافينياك" الذي أمر بمحرقة "الصبيح"، والذي

كان له السبق في هذا النوع من المجازر التي اعتمدها الجيش الفرنسي والتي تكررت مرارًا تطبيقًا لسياسة الإبادة الجماعية.

كما يلتفت الروائي لمعاناة الشباب في وطنهم ورفضهم للواقع السياسي والاجتماعي، مقدمًا عواطفهم الجريحة وأفكارهم المتمردة الرافضة لممارسات سياسية فاشلة، «الخوف سكنه منذ الطفولة، وازداد حدته منذ تخرج من جامعة وهران، ونال شهادة ليسانس في علم النفس التربوي، ثم أدى خدمته العسكرية بمدينة ورقلة، وواجه شبح البطالة مدة أربع سنوات كاملة تعرف فيها على كل شوارع وأزقة المدينة، كان يقضي جل وقته في التسكع والجلوس في مقهى السعادة رفقة بعض الحالمين بالكتابة والتوظيف والثراء والترقية الاجتماعية».<sup>17</sup>

دون أن ينسى العودة إلى مرحلة سوداء التي مرت بها الجزائر وهي مرحلة العشرية فذكر شخصية «عبد الحليم الوقادي» المقتول في العشرية السوداء والتي لم تعد حمراء بعدما استتب الأمن في البلاد بقانون المصالحة الوطنية لم ينس اللحظة المؤلمة التي حضر فيها جنازته بالرغم من أجواء الرعب السائدة وقتذاك في المدينة الجريحة بأخبار مفرغة، رؤوس مقطوعة معلقة على أعمدة، وجثث في وادي مينه، وتنجيبرات مرعبة، وملاحقة الإرهابيين في الغابات والجبال، ووو... ما أتعس حياة يسودها العنف الهمجى، والضحية عاجز عن مواجهة القتل! يزداد قلقًا كلما تذكر تلك العشرية اللعينة التي قتل فيها بعض معارفه وجيرانه، مخلفة جراحًا عميقة».<sup>18</sup>

فالسرد في الرواية لم يكن مقتصرًا على تراث مدينة " غليزان"، وإنما يتجاوزه ليوجه نظرة الناس نحو الواقع المرير الذي يعيشونه يقول «اهتمامي بالتاريخ صار الآن هوسًا يحثني في كل لحظة على التفتيش في الذاكرة بحثًا عن الوقائع المغيبة والجراح المنسية على أمل أقدم إضاءة جديدة لفهم حاضرنّا».<sup>19</sup> فالسرد لم يكن مقتصرًا على "أحمد المنفي" الذي أرسله المستعمر إلى جزيرة كاليدونيا بل تحدث

عن البطل "أحمد شعبان" الذي لم يحظ بحياة مُرضية، فهي شخصية منغلقة على نفسها، حريصة على تتبع تاريخ المنطقة واستهجان المظاهر المشينة في المجتمع، اكتظاظ مراكز البريد، نقص السيولة، أزمة البترول.

لقد صارت هذه التقنية المتمثلة في العودة للموتى وتراثهم وحكاياتهم وتأثيراتهم في يوميات الأحياء حاضرة في السردية الجزائرية المعاصرة بقوة، ويمكن أن نطلق عليها سرديات العودة إلى الموتى/ الموت، وهذه المرجعية الفنية/ الفكرية نجدها عند مبدعين نشروا مؤخرا نصوصهم، مثل "محمد مفلح" في روايته "شبح الكليدوني"، و"زكية علّال" في روايتها "عائد إلى قيري"، و"اليامين بن تومي" في روايته "الزاوية المنسية"، إلخ. فهم يعيدون لقضايا الزّاهن عبر تقنية استدعاء الموت والموتى.

تصنف الرواية ضمن الروايات التي تسعى إلى إعادة بعث التاريخ المغفور والمهمش، ومختفي تحت أنقاض النسيان ونقص الاهتمام والتعريف بتاريخ أمة ونضال شعبها المستमित من أجل الحصول على حريتها، فالرواية موجهة للفت الانتباه إلى التاريخ المهمش وتراث الأمة وهويتها التي حُبت في كتب التاريخ المغبرة من جهة، وفي ذاكرة أناس فارقوا الحياة دون أن يتخذوا ورثة من بعدهم ليروا قصصهم وما عاشوه من ضنك وقلق، وبطولة واستبسال في زمن صعب مباشرة بعد ولوج الاستعمار أرض الجزائر من جهة أخرى.

إن كلمة "الشّبح" متعلقة بكلمة "كليدوني" المنسوبة بدورها إلى جزيرة كاليدونيا الواقعة في المحيط الهادئ القريبة من قارة أوقيانوسا والتابعة للأراضي الفرنسية، فنرى أنّ كاليدونيا تقبع في وجدان الناس الذين هجروا قسراً من أرضهم الجزائر إلى أقاصي "المحيط الهادي" وحتى في ذهن ذويهم وأقاربهم بالوطن، فالشّحنة الدلالية التي يحتويها المكان مليئة بالقيم الاجتماعية والإيديولوجية العاكسة لتوجه الكاتب ونظرته إلى قضية المنفيين الجزائريين بكاليدونيا.

فالسرد الذي ينحوه الكاتب ليس مجرد إعادة تأريخ وحديث عن أناس فقدوا حياتهم من أجل حرية الوطن وعانوا الكثير من المستعمر فقط، وإنما ربط الحاضر بالماضي من خلال إعادة تلك الأحداث الخالدة، وبثها في نفسية الكثيرين من يحتضنون التاريخ ويستعظمونه، فهذا هو "أحمد شعبان" بطل الرواية يعيش عالمًا خاصًا به وله آماله وأحلامه الخاصة «إنه يحب أن يكتشف كل العوالم الساحرة التي كان يحلم بها في طفولته وبخاصة جزيرة كاليدونيا الجديدة التي نفي إليها الشيخ "أحمد المنفي" ومجاهدو ثورة "سيدي الأزرق بلحاج" المندلعة سنة 1864م.

قد تسمح له "حليمة طاب" بالإقامة في مزرعتها الجميلة. من خلال هذه الصبغ السردية يتضح أنّ البطل اتخذ من جزيرة "كاليدونيا" حلمًا يريد الوصول إليه وتحقيق أمنية في أن يتعرف على الأماكن التي مرّ بها جده المجاهد في زمن المقاومة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي.

فبطل الرواية يرغب في معرفة تاريخه المجهول الذي بقي حكرًا على ذاكرة والده فقط، وفي الأصل كان يجب أن يعتني بهذا التاريخ ويدرسه لتحفظ مسيرة الرجل البطل جده الزّاحل من النسيان ويتبوأ مكانة في الأذهان. يقول «عرفته علي بنفسها، فاسمها أليمة طايب، والدتها من الكلدوش المنحدرين من الفرنسيين المنقلبين بعد ثورة كومونة باريس، ووالدها جزائري نفي أثناء ثورة المقراني سنة 1871. تعلم منها أشياء كثيرة عن الكاليدونيين من أصول جزائرية وعددهم لا يقل عن عشرين ألف نسمة، ازداد رغبة في معرفة تاريخ جده».<sup>20</sup>

مع هذا سيكون على "أحمد شعبان" أن يحقق أمنية "الحاج عبد القوي" في إيجاد قبر جده «ابحث عنه يا أحمد أريد أن أرى قبره قبل وفاتي، وأحب أن تتعرف الحكومة على تاريخ سيدي أحمد المنفي وتضحياته كان مقاومًا كبيرًا، عاش منفيًا في كاليدونيا الجديدة، وانضم إلى ثورة الكناك وعاش بينهم، ثم فر من المدينة في

سفينة انجليزية تحمل الزيت إلى استراليا، وقضى ثلاث سنوات في الحجاز، ثم رجع إلى الوطن مع كوكب حجاج المغرب متنكرا في زي درويش<sup>21</sup>. يظهر هذا المقتطف السردى مدى الاندماج والالتحام لعائلة المنفى بتاريخهم وكيف أنهم يتوارثون القصص عنه جيلاً بعد جيل، لأنهم في قرارات أنفسهم يوقنون بأن التاريخ يعبر عن هويتهم خاصة وإن كان براقاً وزاهراً كتاريخ "أحمد المنفى" الذي حارب الاستعمار ببسالة، حتى نفي إلى أبعد جزيرة، لكن تعلقه الكبير بهذا الوطن جعله يعود إليه ليعيش فيه ويموت ويدفن في ترابه، فالاعتزاز بالتاريخ والتأكيد عليه جلي وبارز في كيان الرواية.

#### 3.4 تعالق الرواية مع أدب الرسائل:

تعد الرسائل من أهم المصادر التي تعطي صورة واضحة عن الأحوال التاريخية، والأدبية، واللغوية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، في الفترة التي وضعت فيها هذه الرسائل، إذ تظهر التغيرات في الجوانب المختلفة على مرّ العصور. والرسالة لغة من الفعل (رسل) والمصدر رسلا ورسالة والرسل القطيع من كل شيء، والاسم الرسالة والرسالة، والإرسال التوجيه،<sup>22</sup> ويطلق لفظ الرسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويوجهه إلى شخص آخر، ويشمل ذلك الجواب والخطاب. والرسالة على اختلاف أنواعها وأقسامها «هي كل ما يرسل من شخص إلى آخر مشافهة أو كتابة في موضوع من الموضوعات العامة أو الخاصة وفقاً لهوية المرسل إليه وطبيعة العلاقة بينهما».<sup>23</sup>

يشكل الموضوع الجزء الأهم في بنية الرسائل وهيكلها، فهو لب الرسالة وجوهرها، وفيه يتناول الكاتب الموضوع الذي أنشئت من أجله الرسالة.

لجأ السارد إلى توظيف الرسائل في نصه السردى نظراً لما تحمله من أهمية في تحقيق التواصل بين مجتمع الرواية، فهي كانت بين الأصدقاء أو الأهل؛ حيث

تساهم في تقليص المساحات، والحواجز بين الأشخاص المتباعدين، المنفيين، كما يبرز السارد من خلال الوصف، دور وأهمية الرسائل انطلاقاً من شخصية "عبد القوي"، الذي احتفظ برسائل بعثت له من الأهل والأصدقاء، الذين نُفيوا إلى كاليدونيا من طرف الاستعمار، فعلى الرغم من المسافة البعيدة بينهم، إلا أن الرسائل كانت الوسيلة التي جمعت بينهم، فيقول السارد في هذا المقام «ثم التفت الحاج عبد القوي نحو الصندوق الخشبي، وأخرج منه ثلاث رسائل صفراء مغلقة بكاغظ مقوي رمادي، وسلمها إلى ابنه». <sup>24</sup> فحفاظ "عبد القوي" على الرسائل دليل على أهميتها؛ لأنها تحمل أسرار جده الذي نفي إلى كاليدونيا من جهة، وتبرز معاناتهم في المنفى من جهة أخرى كما أنها تحاول بعث التاريخ المهمش والمغيب الذي تناساه مدونو التاريخ. وتكشف عن بعدها التواصل الذي يربط بين أفراد الأسرة نظراً إلى رمزيتها التراثية، التي انتقلت من الجد "التواتي" إلى ابنه "عبد القوي" ثم إلى ابنه "محمد شعبان".

يحتوي النص السردى على ثلاث رسائل، تم من خلالها التواصل بين الشخصيات الروائية، فكل رسالة تحمل بعداً اجتماعياً تسعى لإيصال آهات المنفيين الذين يعيشون تحت وطأة الاستعمار، وعلى إثر ذلك نجد الرسالة الأولى: تحمل وظيفة ندائية تكمن في صرخة المرسل (محمد المنفي)، واستنجاهه لأهله وابنه خاصة (المرسل إليه) للعودة للوطن، فهو يعيش حرقاً الشوق والحنين لأرضه، وهذا ما يبرز أثرها الاجتماعي لتعايشها مع طبيعة الحالة النفسية، والاجتماعية لليد المرسل، والمتلقية «يا إخواني الكرام ادعوا لي ولكل المنفيين بالعودة للوطن مشتاقاً إلى رائحة البلد وبالخصوص الجبل الأخضر ووادي مينه وإلى خيل وفرسان وعدة سيدي أمحمد بن عودة، وإلى يوم واحد أقضيه معكم في الضريح وأتلو سلكة من القرآن الكريم وأحضر لسماع الجلالة». <sup>25</sup>

تحمل الرسالة الثانية وظيفة تعبيرية، حيث عبر فيها المرسل عن مأساة، ومعاناة المنفي من تعذيب، وترهيب تحت أيدي العدو الفرنسي، في شهر يناير اندلعت ثورة قادها الكناك... فقتل الفرنسيين العشرات، ولم نتحمل نحن المنفيين الجزائريين ما شهدناه من ظلم المجازر، فانضم بعضنا إلى هؤلاء السكان الطيبين، وحملنا معهم السلاح وكافحنا العدو.<sup>26</sup>

وتحمل الرسالة الثالثة بشرى للمرسل إليه (الحاج التواتي)، بفرار والده (المرسل محمد المنفي) من كاليدونيا واستقراره بجدة، كان الفرار "فيش" سفينة الانجليز تحمل الزيوت ثم وصلنا إلى مدينة سيدني بأرض أستراليا ومنها كان السير إلى ميناء جدة من بلاد الحجاز، وأنا اليوم أعيش في المدينة المنورة ولا ينقصني شيء.<sup>27</sup>

فتفتت الرسائل الثلاث وعيه على أعمال شنيعة قامت بها فرنسا الكولونيالية، وذكر له والده أسماء أقاربه من الجبل الأخضر الذين نفوا إلى "كورتى" و"كاليدونيا الجديدة"، وقد استولى المحتلون على أراضيهم، وحدثه مرارًا عن مأساة الشيخ "أحمد المنفي" الذي لم يكتب عنه المؤرخون حرفًا واحدًا، ولم يتعرف هو خريج الجامعة على هذا الجرح المؤلم في تاريخ عائلته المشردة في زمن المقاومة، ولم يعرف عمقه النازف إلا بعد قراءته المتواصلة للرسائل الثلاث.

## 5. خاتمة:

يمكن القول في الأخير بأن "محمد مفلح" يريد أن يوصل عبر روايته رسالة للامة تتمثل في ضرورة الاعتراز بالماضي والبحث في تاريخ الجزائر المجيد وإحياء أمجاده وخاصة المنفيين إلى كاليدونيا الجديدة الذين جاء ذكرهم في التاريخ شحيحًا فهذه الجزيرة الصغيرة احتضنت لفترة طويلة الأم المنفيين والمحرمين من وطنهم فكيف للمجتمع الجزائري أن يتجاهل جزءًا مجيدًا.

يبعث الروائي الحركة في روايته من خلال تحركات شخصياته وخاصة البطل "أحمد شعبان" الذي تقع عليه مهمة البحث عن الماضي وإحياء أمجاد أجداده نجده في الرواية دائم التفكير عن السر الذي جعله يحمل لقب غريب المنفي فكيف يحمل غريب دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن دلالاته هذا ما جعله يبدأ في رحلة بحث عن قبر جده المنفي إلى كاليدونيا ويمثل قبر الجد في الرواية ماضي الأمة الجزائرية الذي لا بد من الرجوع إليه لإحياء الهوية الوطنية «انتظر قليلا وستعرف على أسرار هذا اللقب المجيد إنه لجدي الذي نفي إلى كاليدونيا الجديدة. وهل سمعت بهذه الجزيرة؟ لا أعتقد وزارة التعليم لم تدرسكم عنها، نسيت جراح المنفيين في العهد الكولونيالي، فانتظر حتى تكبر يا بني».<sup>28</sup> فرغم جهل البطل بمكانه لا بد من مواصلة البحث لأنه يكتنز جزءا من تاريخ الجزائر. لأنه لا وجود لشعب دون تاريخ.

## 5.المراجع

- 1 - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، مركز النشر، مكتب الإعلام الإسلامي، 1404هـ، ج1. ص 87.
- 2 - ابن منظور: لسان العرب، مج3، دار صادر، بيروت، ط1، 1997، ص 84.
- 3 - زيتوني لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، لبنان، 2002، ص 67.
- 4 - هلال محمد غنيمي: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط5، 1987، ص 137.
- 5 - (الرواية ص46)
- 6 - العلاق علي جعفر: الشعر والتلقي، دار الشروق، عمان، ط1، 1997، ص 171.
- 7 - محمد مفلح، شبح الكليدوني، دار المنتهى، الجزائر، ط1، 2015، ص 43.
- 8 - المصدر نفسه، ص 43.
- 9 - ينظر: رضا بن حميد: تداخل الأنواع والخطابات في الرواية العربية، تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، إشراف: نبيل حداد، محمود درابسة، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، 2008، ص 406.
- 10 - محمد مفلح، شبح الكليدوني، ص 77.

- 11- المصدر نفسه، ص 73.
- 12- المصدر نفسه، ص 76.
- 13- المصدر نفسه، ص 77.
- 14- المصدر نفسه، ص 77.
- 15- المصدر نفسه، ص 47.
- 16- المصدر نفسه، ص 87، 88.
- 17- المصدر نفسه، ص 18.
- 18- المصدر نفسه، ص 20.
- 19- المصدر نفسه، ص 23.
- 20- المصدر نفسه، ص 34.
- 21- المصدر نفسه، ص 35.
- 22- ابن منظور: لسان العرب، ص 51.
- 23- مصطفى محمد الفار: داود عطاشة الشوابكة، دراسات أدبية ونقدية في الفنون النثرية، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2009، ص 43.
- 24- محمد مفلح، شبح الكليدوني، ص 30.
- 25- المصدر نفسه، ص 36.
- 26- المصدر نفسه، ص 39.
- 27- ينظر: المصدر نفسه، ص 40، 41.
- 28- المصدر نفسه، ص 05.